تقديم

جمال الغيطاني

لكم تتقدم المعرفة الإنسانية، ولكم تتعقد أيضًا، خلال العقود الأخيرة من هذا القرن توصل العلم إلى حقائق جمة، ربما تعادل ما تعاملت معه الإنسانية منذ إدراكها الحقائق الأولية. لو تأملنا المسافة بين العلوم المدركة أول القرن والمتحققة في نهايته لأصابنا ذهول، بل إن من وُلِد مثلي قبل نهاية القرن، ويستعد الآن لولوج العقد السادس ليعجب حتى ليصبح مثل أهل الكهف في مواجهة التغيُّرات المتلاحقة.

لننظر مثلاً إلى الطيران، منذ ارتفاع طائرة الأخوين رايت لمدة دقائق معدودات، والتطورات المتلاحقة التي توالت خلال القرن. ماهي الصورة عند نهايته، خلال أقل من مئة عام. منذ بدء تحقق حلم الإنسان الأبدي في الطيران سار بخطى فسيحة جعلته يصل إلى أعماق الفضاء الخارجي، وإذا قُدِّر لنا العيش خلال العقدين القادمين، فسوف نشهد سفر الإنسان إلى المريخ، هذا التقدم المذهل نتاج معرفة إنسانية متراكمة منذ فجر التاريخ الإنساني، العصور القديمة، بابلية، فرعونية، صينية، أوروبية، سقراط، نيوتن، أينشتين.

الجسد وما حوى، الكوكب وما يضم، الكون الفسيح، هذه المعارف منظومة، بعضها معقد، ومنها ما يستعصى على إدراك القارئ المثقف العادي، الحق أنني بعد فراغي من قراءة هذا الكتاب السهل الممتنع للأستاذ محمود خضر أعُجبت ودُهشت، أما الإعجاب فلما حواه من تنوع مُركَّز، يبسط خلاله أعقد النظريات العلمية والحقائق الفلسفية في يسر جميل، وتفصيل مفهوم. بحيث يُلم القارئ بحقائق العلم والوجود بدون مشقة، النظريات الفلسفية القديمة والحديثة، النظريات العلمية المتعلقة بالزمان والمكان، يقول محمود خضر :

«إن التراكم المعرفي منذ الحضارات الفرعونية والإغريقية وما بين النهرين وصولاً إلى عصر النهضة الذي أفرز كوبرنيكوس، ونيوتن وما قدمه المفكرون العظام في تاريخ البشرية من سقراط الباحث عن الحقيقة وصولاً إلى فولتير فيلسوف الحرية، كل هؤلاء قدموا الكثير للقرن العشرين».

لعل هذه العبارات الواردة في متن الكتاب، تشير إلى محتواه القيِّم، الذي أتاح لي فرصة الإلمام بحقائق حديثة جداً، وأخرى قديمة جداً، بوضوح وجلاء، ومثل هذا الكتاب لا يمكن أن يضعه إلا مثقف كبير، استوعب تمامًا، وأتاح لنا الحقائق الأزلية، ونتاج الجهد الإنساني عبر عدة عصور، في أوضح صياغة وأعمق مضمون. إنه الأساس الميسر كي نفهم وندرك ونعرف.

مدخل

قد يبدو للوهلة الأولى أن ما يمكننا قوله عن الفلسفة قد قيل، وأن أي إضافة محكومة بالإخفاق. ولكني آثرت السير بين علامات الاستفهام والتعجب، واستخدمت لغة لا تقول حقيقة ما ترسمه الحروف، بقدر حاجتها إلى التأويل. ولذلك مزجت في القسم الأول - في مجموعة مقالات - ما بين الأسطورة ومواضيع فلسفية، كالأخلاق والجمال والفن والزمن. وتحدثت عن ميلاد الفلسفة اليونانية في القسم الثاني. وتناولت إشكالية عقوبة الإعدام في القسم الثالث، كمشكلة فلسفية أخلاقية، أردت الدفع بها إلى السطح للجدل حولها، على الرغم من إدراكنا أنها لا تأتي في مصاف المشكلات الكبرى، كالوجود والعدم، أو الخير والشر.

وطالما أننا دخلنا إلى محراب الفلسفة، فإننا بذلك نكون قد تناولنا موضوعًا مترامي الأطراف مليئًا بالأفكار غير المحددة، التي دائمًا ما نعثر فيها على شيء من الصواب، وكذلك على شيء من الخطأ أيضًا.

وعندما يتبادر إلى ذهننا التساؤل حول ماهية الفلسفة، فإننا بذلك

نكون قد وضعنا أنفسنا خارج الفلسفة وبمعزل عنها، بينما الهدف من هذا الكتاب هو أن نتفلسف ونتساءل: ما هو الوجود؟ ماذا يجب أن نفعل؟ ما هي الحقيقة؟ والأسئلة موجودة منذ القدم، وما زالت مطروحة إلى الآن، وستبقى إلى الأبد، وقد نخفق في الإجابة عنها مرة تلو أخرى، ويبقى التفكير في الإجابة عن تلك الأسئلة هو: ـ الفلسفة.

كانت الفلسفة والحكمة والكثير من العلوم تشكل حقلاً واحداً، وبمرور الزمن خرجت علوم الكيمياء والرياضيات والفلك وغيرها، من تحت عباءة الفلسفة، وأصبحت العلوم أكثر تخصصًا؛ وغدا تاريخها هو تاريخ تحررها من الفلسفة التي أخذت تضيق رقعتها.

ولا غرابة في أن يتساءل أحد: ـ لماذا تعرضْتُ لتاريخ الفلسفة الإغريقية فقط؟ إنني أروي تاريخ هؤلاء الفلاسفة الأوائل ـ بشكل مبسط ـ لأنهم أسسوا أنساقًا فلسفية تبدو خطأ كبيراً للأجيال اللاحقة، ولكنها بدايات الوعي الإنساني المؤسس على التفكير العلمي بعيداً عن الحكمة ومنفصلاً عن الخرافة، كما أنه لا يمكن فهم الحضارة الأوروبية دون معرفة الحضارة الإغريقية، التي تشكل الفلسفة اليونانية عمودها الفقري، لقد غرقت أوروبا في عصور الظلام ألفَ عام عقب تنصلها من الحضارة الإغريقية والرومانية بعد ظهور المسيح، إلى أن جاء عصر الرينسانس منطلقًا من دويلات إيطاليا، التي كانت لا تزال يفوح من معابدها بخور ڤينوس، وتتراقص على جدرانها خيالات مسرحيات سوفوكليس، فحاولت التوفيق بين المسيحية والأرسطوية ونجح توماس الإكويني في التوفيق بين المسيحية وتعاليم أرسطو، وأعيد اكتشاف أفلاطون بفضل الفلورنسيين، فأثارت المحاورات الأفلاطونية نقاشًا حاداً طوال القرنين الخامس عشر

والسادس عشر، وقد كان لجوتنبرج ـ باختراعه الطباعة حوالي سنة 1470 م ـ الفضل في نشر المعرفة المكتوبة ووصول الأفكار بشكل سريع إلى المدن الأوروبية كافة.

وكان الإغريق يعتبرون أنفسهم شعبًا متميزاً عن بقية شعوب العالم ورواداً للديمقراطية في العَالَمَيْنِ القديم والحديث، فكانت رغبة المواطنين هي التي توجّه سياسة الدولة حيث يُسمح لكل أثيني بحضور جلسات الجمعية الوطنية والمجالس الشعبية ويتمّ انتخاب نواب الشعب وممثلي الحكومة في حرية ويسر، وللشَّعب أنْ يشترك في اتخاذ القرارات ويحاسب المسؤولين عن تنفيذ القرانين. ولم يكن نظام الديمقراطية في أثينا تقليداً لجيرانه، بل نموذجًا أبدعته العقول الإغريقية.

وعلى الرغم من أن مؤرخي الأدب تعددت أراؤهم في نشأة التراجيديا (رواية ذات نهاية مفجعة)، إلا أنهم متفقون على أنها نشأت في اليونان القديمة. وكما يقول أرسطو : ـ فإنها نشأت من الرقصات الغنائية «الديثورامبوس» التي كانت تُقام تكريمًا للإله «ديونيسوس» وكان يُؤَدّي الديثورامبوس مجموعة من الراقصين ينتظمون في شكل دائرة يتوسطها منشد ويقف بجواره عازف القيثارة. ولقد تطورت التراجيديا على يد عظماء المسرح الإغريق أمثال يوريبيديس (ولد العام 480 ق.م)، وسوفوكليس (ولد العام 495 ق.م)، وايسخولوس (ولد العام 525 ق.م). وما زالت أعمالهم تعرض على خشبة المسرح حتى يومنا هذا، ويصفق الحاضرون لأوديب ملكًا، والكترا، كما يصفقون لِعَرَبَةٍ اسمها اللذة.

إن فلاسفة الإغريق الأوائل وأدباءها، من طاليس إلى أفلاطون، ومن

أريستوفانيس إلى اسخيلوس عاشوا للمعرفة فقط، قبل أن تكون للمعرفة سلطة. ولم يجعل الإغريق منهم قديسين، بل مات سقراط محكومًا عليه بالإعدام، وكاد أن يُباع أفلاطون كعبد في سوق النخاسة. إن ممارسة الفلسفة اليوم ـ في نهاية المطاف ـ هي محاولة التحرر من سيطرة سلطة المعرفة الجامدة، المتمثلة في المدارس والجامعات والكنائس والجوامع والقوالب الجامدة التي نفكر بها ومن خلالها... إنها دعوة لقراءة الأدب الإغريقي، وللتحرر الفكري على نمط الفلاسفة الأوائل.

محمود خضر

obeikandl.com